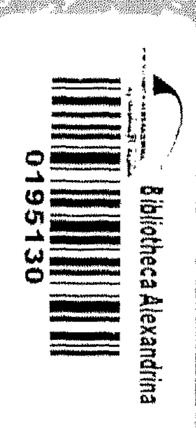
السلطان سعيد

والعلاقات العربية ـ الأفريقية

د. محمد حسن العيدروس
أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر
جامعة الإمارات العربية المتحدة

دار المتنبي للطباعة والنشر



السلطان سعيد والعلاقات العربية ـ الأفريقية

دار المتنبي للطباعة والنشر

أبوظبي: ص.ب٢٦١٧١ هاتف٣١١٩٧٧ ـ ٣٣٩١٩١

السلطان سعيد
والعلاقات العربية ـ الأفريقية

د. محمد حسن العيدروس

أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر

جامعة الإمارات العربية المتحدة

الطبعة الأولى

الإهــداء

إلى الوالد العزيز

حسن أحمد علوي العيدروس

الذي كان له الفضل الأول في ظهور هذه المادة العلمية

فلولاه لم تخرج إلى الوجود

وله مني كل حب وتقدير

د. محمد حسن العيدروس

التجربة التاريخية المشتركة

تعتبر دراسة التاريخ مهمة في محاولة فهم العلاقات العربية ـ الأفريقية بطريقة أفضل، وخاصة التاريخ العربي ـ الأفريقي منذ أقدم العصور وحتى التاريخ المعاصر لترابطه في مختلف المراحل الزمنية والنواحي الإنسانية والفكرية، بحيث أصبح هذا التاريخ كعدة حلقات مترابطة يصعب فهمها إذا سقطت إحداها.

ونظراً لهذه الوحدة والترابط المشترك في التاريخ العربي ـ الأفريقي، فقد أصبح عبئاً على صانعي السياسة المحدثين بسبب ما ألقاه في طرقاته الباحثون الغربيون من مقولات وقد شكلت أحياناً في مكانة المسلمات، مما كانت تخلق عثرة في العلاقات العربية ـ الأفريقية، لولا تفهم الجانبين العربي والأفريقي لهذه المحاولات الغربية لإعاقة العلاقات العربية ـ الأفريقية.

ثم بدأت في الفترة المعاصرة مع بداية الستينات عمليات إلقاء الجسور وإعادة هذه العلاقات المشتركة، ولا بد أن يبذل جهد فكري جديد يجعل من فهم التاريخ إمكانية جديدة للالتقاء والتفاهم

العربي ـ الأفريقي، ولجعل التربة التاريخية الحديثة لدى العرب والأفريقيين موضع تأمل جديد، يمكن معه فهم آفاق المستقبل(١) والمضي نحو تعميق هذه التجربة للأجيال القادمة.

ومن هذا المنطلق فإننا سوف نقوم ببعض الدراسات عن هذه التجربة التاريخية المشتركة في عهد السلطان سعيد بن أحمد، ومحاولته ربط عمان العربية بالساحل الشرقي لأفريقيا. يقول د. صلاح العقاد(٢): «إن السيد سعيد قام بتجربة فريدة من نوعها وهي إنشاء دولة عربية أفريقية في شرق أفريقيا».

وكانت هذه التجربة خير دليل على تلاحم الشعب العربي بالأفريقي، وما تمخض عنه من اكتساب الروابط الحضارية والتاريخية والثقافية والروحية بكل وضوح، والتي كان الدين الإسلامي المشعل الوحيد الذي مهد لها الطريق القويم وعلى مدى العصور نموذجاً للامتزاج والتعاون المتبادل.

وذلك إضافة إلى الخبرة والمعرفة التي تميز بها البحارة من جنوب الجزيرة العربية خاصة عمان وحضرموت في توقيت الرياح الموسمية واتجاهاتها من بحر العرب إلى خليج عدن وبالعكس كان لها أثرها في الرحلات التي قاموا بها إلى شرق أفريقيا،

---

(١) حلمي شعراوي: العرب والأفريقيون وجهاً لوجه ص٢٠٩.

(٢) د. صلاح العقاد: التيارات السياسية في الخليج العربي ص١١٦.

ولعبت دوراً مهما في وصولهم إليها ومعرفتهم لها قبل وصول البرتغاليين إليها بعدة قرون(٣).

كما كان للملاح العربي الشهير ابن ماجد الذي ذاع صيته في علوم البحر دور كبير في إرشاد الملاح البرتغالي «ڤاسكو دي جاما» وإرشاده إلى الطريق البحري من «مالندي» في شرق أفريقيا إلى الهند. كما قام عرب عمان وحضرموت بتنظيم الرحلات إلى شرق أفريقيا بشكل دقيق. واستقرارهم فيها أوجد الأثر البالغ في عمق ارتباطهم بشعب شرق أفريقيا ومعرفتهم بأحوالهم، مما أعطى بعداً جديداً في العلاقات العربية ـ الأفريقية في كل من عمان وحضرموت وشرق أفريقيا، نلاحظه إلى يومنا هذا.

كما تدل الاختلاطات العرقية الواضحة بين شعوب عمان وحضرموت وشرق أفريقيا على تلك الصلات العميقة من خلال الإشارة إلى السواد اللوني العربي ـ الأفريقي(٤) والمنتشر في سواحل عمان وحضرموت وسواحل شرق أفريقيا ويوجد كثير من الاختلاط فيما بينهم.

ويمكننا أن نتلمس تلك الآثار التي ذكرناها في الفترات

---

(٣) عصام محسن الجبوري: العلاقات العربية ـ الأفريقية ص٢٠.

(٤) عصام محسن الجبوري: نفس المرجع ص٢١.

التاريخية التي تتابعت، وذلك من خلال معرفتنا بقوة العلاقات السياسية والاقتصادية والثقافية التي قامت بين الشعب العربي وشعوب القارة الأفريقية. وتتوضح هذه العلاقات أكثر في قيام الدولة البوسعيدية العربية في عمان، ثم امتدادها إلى أرض القارة الأفريقية وتأسيسها السلطنة الإسلامية في شرق أفريقيا التي خضعت لحكمهم زمناً طويلاً خلال القرنين الثامن والتاسع عشر(٥).

---

(٥) عصام محسن الجبوري: نفس المرجع ص٢٢.

خلفية تاريخية عن الوجود العربي في شرق أفريقيا

لقد لعب العمانيون والحضارمة دوراً كبيراً وبارزاً في العلاقات العربية ـ الأفريقية، وخاصة في شرق أفريقيا منذ القدم. أما بداية هذه العلاقات في التاريخ الحديث يمكن رجوعها إلى قيام دولة اليعاربة والدور الذي لعبوه في طرد النفوذ البرتغالي عن عمان، مما حدا بأبناء شرق أفريقيا أن يرسلوا وفداً منهم إلى عمان يستنجدون بالإمام سيف بن سلطان، وهو ثاني أئمة الأسرة اليعربية ويطلب إليه أن يقوم في جزر «ممباسة» «زنجبار» و«باميا» بنفس الدور الذي قام به في عمان.

ولم يكن اختيار الإمام سيف بن سلطان للقيام بدور المنقذ لكونه المدافع عن الحقوق الوطنية والإنسانية ضد الاستعمار الأوربي فحسب، بل وأيضاً لوجود أعداد كبيرة من العرب التجار والمقيمين، والذين مهما اختلفت أنسابهم فهم ينظرون إلى إمام عمان على أنه القوة المؤهلة لتحريرهم من نير الغاصب الغربي.

وبرغم مر العصور على زوال الممالك التي كانت تكون الجزء الغربي من بلاد العرب والذي ينتمي إليه أصلاً معظم العرب المهاجرين إلى الساحل الشرقي من أفريقيا، فإن أحفاد هؤلاء المهاجرين مدفوعين بشعورهم وبإدراكهم لأصلهم العربي ـ الأفريقي المشترك استنجدوا بعرب عمان، وإن كانوا من قبائل مختلفة وربما من مذاهب دينية مختلفة أيضاً(٦).

---

(٦) رودولف سعيدروث: سلطنة عمان خلال حكم السيد سعيد من سلطان ص٩٠.

وهذا يدل على عمق الروابط العربية ـ الأفريقية والعلاقة التي كانت تربط شرق أفريقيا بعمان، وإلا لماذا اتجه أبناء شرق أفريقيا إلى عمان العربية بالذات دون غيرها من الدول الإسلامية القوية كالدولة العثمانية والدولة الصفوية في إيران؟(٧).

والاستجابة لهذا النداء أمر تمليه العاطفة كما تمليه المصلحة، فما من أسرة حاكمة في عمان تجهل أن التجارة لا تقوم إلا حيث يكون للدولة نفوذ ما. ورغم أن الأوضاع لم تكن مستقرة تمام الاستقرار في عمان، فإن الإمام سيف بن سلطان لم يتأخر في طلب أبناء شرق أفريقيا، وقام بإرسال أسطول من السفن الحربية من مسقط لإخراج البرتغاليين من «ممباسة».

وبذلك دخل المجاهدون العمانيون فشنوا عليهم حملات موفقة منذ عام (١٦٥٢) وقد بلغت ذروتها في عهد الإمام سيف بن سلطان(٨).

واستطاعت هذه القوة الناشئة الجديدة أن تهزم البرتغاليين، ثم القضاء عليهم نسبياً في معظم المناطق الشمالية منها(٩). واستطاع الأسطول العماني الاستيلاء على ممباسة وطرد الاستعمار

---

(٧) رودولف سعيد روث: نفس المرجع ص٩٠.

(٨) محمد محمود الصواف: أفريقيا المسلمة ص٧٣٥.

(٩) محمد محمود الصواف: نفس المرجع ص٧٣٥.

البرتغالي، وتمكن العمانيون من الدخول إلى موزمبيق، وبذلك ظل العمانيون يحملون علم المقاومة في عهد سيف بن سلطان، وهزموا البرتغاليين سادة الأمس هزيمة ساحقة عندما أخرجوهم من ممباسة عام (١٦٦٠)(١٠).

وإن إخراج البرتغاليين لم يكن بالأمر السهل إذ أنهم وإن خرجوا من شرق أفريقيا فما لبثوا أن عادوا إليها وظلوا فيها فترة من الزمن حتى عام (١٦٩٦) تقريباً، مما جعل إمام عمان يرسل حملة بحرية ثانية، وكان وصولها إيذاناً بثورة عامة في شرق أفريقيا على طول ساحله، أبيد فيها البرتغاليون بأعداد كبيرة، الأمر الذي أدى إلى تهيئة الفرصة لحكام عمان لتأسيس إمبراطورية عربية - أفريقية.

وبالرغم من إدراك الإمام سلطان بن سيف لهذه الاحتمالات وأنه لم يكن زاهداً عن الاستفادة منها، فإن ضعف مركزه في عمان وانشغالة بأمور مهمة أخرى، قد أخر تحقيق هذا الحلم فترة من الزمان. ولكن القوة العمانية كانت قد استطاعت أن تقضي على البرتغاليين قضاءً شاملاً عندما انسحبت من شرق أفريقيا بعد الانتهاء من مهمتها في تحريرها من الاستعمار الأوروبي.

وقد ظلت ممباسة خالية من أي تدخل أوروبي حتى عام (١٧٢٨)،

---

(١٠) د. حسن أحمد محمود: الإسلام والثقافة العربية في أفريقيا ص٤٢٤.

عندما عاد البرتغاليون إلى احتلال هذه المنطقة مرة أخرى بقيادة الأدميرال «لويس دي سامبيو»، مما اضطر الأهالي في شرق أفريقيا إلى طلب العون والنجدة من إمام عمان، الذي أسرع بإرسال قوة بحرية مكونة من أسطول صغير.

وما أن وصلت القوة العمانية إلى ساحل شرق أفريقيا، حتى وجد أن ثورة الأهالي كانت قد قضت على البرتغاليين. وبعدها أصبح محمد بن سعيد المعموري، قائد الحملة الذي أرسله الإمام لطرد البرتغاليين، نائباً ووالياً على شرق أفريقيا(١١).

وكان هذا التحرر من الاستعمار الأوروبي البرتغالي الذي جثم على صدر المسلمين نحو قرنين، كان نذيراً بانطلاقة للنفوذ الإسلامي. وعادت الحركة الإسلامية نشاطها وعاد الاتصال فيما بين العرب والأفريقيين، وازداد التعاون التجاري، وعن طريق التجارة والدعاة بدأ الإسلام يتوغل إلى الداخل حتى وصل إلى «موزمبيق» و«سفالة» و«نياسا لاند».

وبعد اختفاء الخطر البرتغالي تعمق العرب في توغلهم الداخلي، فنفذوا إلى «هضبة البحيرات» ودخلوا «أوغنده».

وفي خلال القرن الثامن عشر أنشئت المساجد في القرى الواقعة على طول الطرق التجارية الموصلة إلى «بحيرات نياسا»

---

(١١) رودولف سعيد روث: المرجع السابق ص٥١.

و«تنجانيقا» حتى حدود «الكونغو». ويذكر «هتشنز» أنه لا تكاد تخلو قرية في قلب هذه المنطقة من مسجد للمسلمين(١٢).

(١٢) د. حسن أحمد محمود: المرجع السابق ص٤٣٥.

السلطان سعيد ودوره
في إقامة الدولة العربية ـ الأفريقية

تعرضت عمان للاضطرابات الداخلية في نهاية الأسرة اليعربية مما نتج عنه قيام دويلات محلية عربية في شرق أفريقيا، من أهمها أسرة المزاريع العمانية التي استقلت بحكم «ممباسة» لفترة من الزمن حتى مجيء أسرة البوسعيد إلى الحكم.

ورغم محاولة أحمد بن سعيد السيطرة على ممباسة، إلا أنه لم ينجح في ذلك، وظلت أسرة المزاريع تحكمها حكماً مستقلاً، ولكن الجزر المجاورة مثل «كلوا» و«ماركا» و«زنجبار» ظلت تحت سيادة عمان يحكمها عبد الله بن جعد من ولاة عمان.

وظل الأمر كذلك حتى ظهور سعيد بن سلطان الذي كان مشغولاً بمواجهة الوهابيين طيلة الثلاثين عاماً التالية، ورغم حروبه المستمرة وغير الناجحة فقد أرسل والياً عنه يدعى خلفان بن ناصر عام (١٨١٢) إلى ممباسة، وأمره أن يبني قلعة في «لامو» ولكن ممثل المزاريع عبد الله بن أحمد رفض الاعتراف بأية حقوق لعمان بالتبعية أو بالأتاوة(١٣).

ونظراً لانشغال سعيد لم يستطع إرسال قواته إلى شرق أفريقيا في تلك الفترة، لأنه ورث تركة مثقلة بالأعباء والأعداء الذين كانوا يحيطون به من كل جانب، وبالقبائل المتمردة المنتشرة في جميع أرجاء عمان. كان الوهابيون يريدون احتلال عمان، وكان القواسم

---

(١٣) رودولف سعيد روث: المرجع السابق ص٩٣.

يهددون التجارة العمانية في مدخل الخليج العربي، كما أن النزاع بين الفرنسيين والبريطانيين قد يجر عمان في أية لحظة.

كل ذلك أخر توجه السلطان سعيد إلى شرق أفريقيا، ولكن بمجرد أن بدأت الأمور تتحسن وانتهى خطر الوهابيين بعد اجتياح جيش محمد علي الجزيرة العربية، بدأ ينظر سعيد إلى شرق أفريقيا وشعر أنه أصبح من القوة بحيث يستطيع أن يبسط نفوذه على هذه الأرجاء. وأثناء ذهابه لتأديه فريضة الحج في «مكة المكرمة» كان قد أعد حملة بحرية إلى ممباسة، وكان واثقاً من أن القوة الأوربية لن تعترض سبيله، نظراً لضعف مركز الفرنسيين الذين كانت تربطه بهم علاقة مودة.

كما أنه أقام مع البريطانيين علاقات قوية وخاصة بعد زوال الخطر الوهابي، ويبدو أن سعيد كان واهماً فيما تخيله من سكوت البريطانيين عن مشروعاته. فقد كان البريطانيون في هذه الفترة يرنون بأبصارهم إلى أفريقيا الشرقية، نظراً إلى أهميتها الاقتصادية والاستراتيجية.

وعلى كل فإن الفرصة قد لاحت للسلطان سعيد عندما استنجد به بعض السكان من شرق أفريقيا لينقذهم من أسرة المزروعي، الذين كانوا قد بسطوا نفوذهم على تلك المناطق، وبالتالي استطاعت قوات السلطان سعيد أن تستولي على مدن «لامو» و«بيت» و«ممباسة» و«برادة».

انتهى الأمر بعقد صلح مع ممباسة في يناير عام(١٨٢٨)(١٤) ووضع حامية مكونة من حرسه الخاص للمحافظة على الأمن في ممباسة، وعندما قضى على الثورة غادر ممباسة بعد أن اعتقل جملة من قادة المزاريع وأخذهم إلى مسقط ثم نفاهم إلى قلعة مهجورة في جزيرة هرمز(١٥)؛ وبذلك أصبح السلطان سعيد حاكماً على عمان وشرق أفريقيا.

ويمكننا القول بأن السلطان سعيد استطاع أن يربط عمان الواقع في الركن الجنوبي الشرقي من الجزيرة العربية بشرق أفريقيا ويوحدهما تحت حكمه، مما كان له أبعد الأثر في تقوية الروابط وتوثيق العلاقات العربية ـ الأفريقية بين شرق الجزيرة العربية وشرق أفريقيا. وانعكس ذلك على نواح كثيرة اقتصادية وسياسية، وأدى إلى انتعاش وازدهار هذه العلاقات.

وبذلك يكون سعيد بن سلطان قد نجح في تأسيس إمبراطورية عربية ـ إفريقية كانت الأولى من نوعها في التاريخ الحديث لآسيا وأفريقيا(١٦)، بل والتاريخ العربي الحديث أيضاً.

---

(١٤) د. حسن إبراهيم حسن: انتشار الإسلام في القارة الأفريقية ص١٩٤ـ٢٠٦.

(١٥) فالح حنظل: المفصل في تاريخ الإمارات العربية المتحدة ج٢ ص٤٦٤.

(١٦) د. جمال زكريا قاسم: الخليج العربي (١٥٠٧ـ ١٨٤٠) ص٢٠٩.

السلطان سعيد ونقل العاصمة العربية مسقط إلى زنجبار في شرق أفريقيا

رغم الأخطار والمشكلات التي كان يعاني منها السلطان سعيد، فإنه انصرف بجهوده وراء رغبته في توسيع ممتلكاته في شرق أفريقيا والعمل على تحسينها، وأصبح ينظر إلى عمان على أنها وإن كانت هي المصدر الأول لقوته البحرية والعسكرية، إلا أنها شيء ثقيل على نفسه ويجب أن يعهد بها إلى وكلائه ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، مما يصور مدى اهتمامه الشخصي بشؤون شرق أفريقيا(١٧).

وقد اشتد في عهد السلطان سعيد التحول من الناحية الدينية إلى الناحية السياسية، وأخذ سعيد يختط سياسة أفريقية واضحة المعالم. ويذهب بعض الباحثين إلى أن اتجاه سعيد إلى شرق أفريقيا كان محاولة منه للهروب من المشكلات الكثيرة التي كانت تواجهه في عمان.

ولكننا قد لا نتفق مع هذا الرأي، لأن اتخاذ سعيد سياسة أفريقية لم تكن ليبعده عن المشكلات العمانية، التي كان يفرغ جزءاً كبيراً من وقته وجهده لها. وإنما كان اتجاهه إلى شرق أفريقيا يدل على بعد نظره وحرصه على هذا الجزء الهام من دولته لكثرة موارده وزيادة فرص استغلاله، فضلاً عن أن الظروف المستجدة التي آلت إليها الدولة في عهده لم تضطره ـ كما حدث لأسلافه من أئمة عمان ـ إلى البقاء في دولة إسلامية وإنما فصل الدين عن السياسة.

(١٧) ج.ج. لوريمر: دليل الخليج ج٢ ص ٧٠٣.

وقد ظهر ذلك واضحاً عندما أقدم السلطان سعيد على نقل عاصمة حكمه من مسقط في القسم العربي إلى زنجبار في القارة الأفريقية في عام (١٨٣٢)، وإقامته هناك وتفرغه لتكوين إمبراطورية عمانية في شرق أفريقيا(١٨).

وإن نقل سعيد عاصمة إقامته العربية إلى جزيرة زنجبار الأفريقية، التي تبعد عن بلاده بنحو (٢٥٠٠) ميل والتي لا تصل إليها السفن إلا في وقت هبوب الرياح الموسمية، ليثير عدة تساؤلات.

فلو أمعنا النظر في حالة مسقط في ذلك الحين، فإننا قد نرى بأن سعيداً كان مدفوعاً بعوامل عدة، منها جو شرق أفريقيا الذي يختلف عن جو مسقط المعروف بشدة حرارته معظم أيام السنة وشدة هبوب رياحه، في حين نجد شرق أفريقيا يمتاز بجمال الطبيعة وجاذبيتها(١٩)، وأهمية موقعها الجغرافي وما تتميز به من موانئ صالحة للتجارة وعمليات التبادل التجاري، إضافة إلى الدوافع السياسية التي كان من أهمها تفضيله الإقامة في زنجبار، بعد أن عانى الكثير من المتاعب الداخلية في عاصمته السابقة مسقط من جانب المنافسين له في حكم عمان من أعمامه أو أبناء عمومته.

---

(١٨) د. جمال زكريا قاسم: المرجع السابق ص٢١١.

(١٩) د. حسن ابراهيم حسن: المرجع السابق ص٢٠٣.

إضافة إلى ذلك فإن الوهابيين والقواسم كانوا كثيراً ما ينقضون عهده معهم ويجددون هجماتهم على المقاطعات العمانية الواقعة في الخليج العربي والمحاذية للإمارات العربية.

وليس من شك في أن نقل العاصمة إلى زنجبار كان له أثر كبير في وضع الأسس السياسية والاقتصادية للسلطنة العربية في أفريقيا(٢٠)، بل ويعتبر تطوراً في العلاقات العربية ـ الأفريقية لما كان له من نتائج على شرق أفريقيا في عهد السلطان سعيد.

وبرغم سقوط ممباسة في يدي السلطان سعيد، فإنه لم يغير من عزمه الأول على جعل زنجبار مقراً له وعاصمة لدولته، فقد كانت ممباسة في تلك الفترة هي المفتاح الرئيسي للساحل الأفريقي بكامله، وفيها أقدم الموانئ على ذلك الساحل وأكبرها.

ولكن السلطان سعيد بدأ من زنجبار ينافسها في مركزها، سيقدر له بعد سنين قليلة أن يسلبها مركزها وأهميتها، علماً بأن ممباسة هي التي كانت من أهم المدن والموانئ في شرق أفريقيا قبل عام (١٨٣٢)، ولم تكن زنجبار وقت ذاك إلا قرية صغيرة لا يحسب لها حساب(٢١).

وقد لقي السلطان سعيد استقبال الفاتحين في زنجبار، التي

---

(٢٠) د. جمال زكريا قاسم: المرجع السابق ص٢١٩.

(٢١) رودولف سعيد روث: المرجع السابق ص١٠٣.

كان أهلها مدفوعين بالصلات القديمة التي تربطهم بعمان، مقدرين ما بذله حكام عمان من جهود في سبيل حمايتهم. لذلك هيأت له الأحوال في زنجبار حكماً آمناً، كما كان سعيد مدفوعاً بعوامل اقتصادية ترجع إلى صلاحية موانئ زنجبار للملاحة(٢٢).

ولا شك في أن سعيد كان يحلم بقيام إمبراطورية عربية - أفريقية واسعة الأطراف تشد بعضها إلى البعض الآخر شبكة محكمة من الروابط التجارية المتينة. وكلما كان تفكيره يهديه إلى العودة إلى مسقط ووجوب البقاء فيها، وكلما كانت مكائد الطامعين وثورات القبائل وتهديد الوهابيين من جهة والقواسم من جهة أخرى تجعل غيابه عن عمان محفوفاً بالمخاطر والصعاب؛ كان يعود فيصر على البقاء في عاصمته الجديدة زنجبار، يمضي فيها أوقاتاً أطول، فينظم المدينة ويهتم بأمورها الإدارية والاقتصادية والعمرانية، غير عابى بما يقال من كلام الناس بل وسخريتهم أحياناً.

فقد أصبحت زنجبار مطمح أنظاره ومهد أحلامه، وكان مستعداً للمجازفة بمواجهة كل هذه الأخطار المحدقه به، من أجل إقامته في عاصمته بشرق أفريقيا(٢٣). وكان قد بدأ في بناء منزله الريفي

---

(٢٢) حسن إبراهيم حسن: المرجع السابق ص٢٠٣.

(٢٣) رودولف سعيد روث: المرجع السابق ص١١٥.

الذائع الصيت عام (١٨٣٨) «بيت الموتني» نسبة إلى نهر الموتني الصغير خارج حدود زنجبار، وما أن تم بناؤه حتى اتخذه داراً ومقاماً له ولحاشيته ومركزاً للحكم.

وبيت «الموتني» كان واسعاً كبيراً غير منسق الطراز، ومع أن السلطان سعيد ابتنى له قصراً آخر داخل المدينة إلا أن «بيت الموتني» ظل محل سكناه المفضل ومحل سكنى أبنائه وحاشيته، وكان عددهم يزيد عن الألف نسمة. ولم يكن السلطان سعيد يهتم بالمظهر في الهندسة والبناء والقصور ليرضي الأوربيين، وإنه كان بسيطاً ومتواضعاً، ولكنه كان يدرك أهدافه وإحساسه صادق بأنجح السبل التي تحقق أهدافه هذه وعزمه قاطع على بلوغها.

وقد كان أدرك أهمية هذا الموقع من أول نظرة ألقاها عليه، عندما جاء من ممباسة إلى زنجبار، ولم يستطع أن يهجرها بعد. فمنها امتد سلطانه على طول الساحل وعلى الجزر المتناثرة أمامه، كما امتد إلى داخل البر الأفريقي، ومنها انتشر تجاره ووكلاؤه التجاريون في شبكة من النشاط التجاري الذي غطى الساحل الشرقي ـ الأفريقي(٢٤).

---

(٢٤) رودولف سعيد روث: المرجع السابق ص١١٧.

السلطان سعيد والتنمية الاقتصادية في شرق أفريقيا

إن الارتباط الاقتصادي العربي بشرق أفريقيا قد بدأ من أكثر من ثلاثة عشر قرناً على الأقل، بعد أن دخل العرب واستقروا في الساحل الشرقي لأفريقيا بشكل واضح منذ القرن العاشر تقريباً. وكانت معظم هذه الهجرات في البداية من أبناء حضرموت وساحل اليمن، وكان غرضها في الغالب تجارياً بعيداً عن الفتوحات الإسلامية برغم علاقتها بنشر الإسلام عن طريق التجارة دون التدخل السياسي والعسكري.

مما يعني بأن الغرض التجاري كان هو الدافع لهذه الصلات، ولم تكن ذات أغراض استعمارية، بدليل اختيار العرب للمدن والموانئ التي تتسم بميزات تجارية محددة، كسهولة اتصالها بالأقاليم الداخلية مثل ممباسة وزنجبار(٢٥).

وقد كان أحمد بن سعيد مؤسس الأسرة البوسعيدية وهو جدّ السلطان سعيد يهتم كثيراً بالنواحي التجارية، وقد يرجع ذلك لانتمائه لأسرة من التجار واشتغاله بالتجارة، مما كان له أثر كبير في اهتمامه بتلك النواحي. وقد فتحت مقاطعات شرق أفريقيا بمواردها وما يكثر فيها من الغلات، سبل التجارة على مصراعيها.

وعمل أحمد بن سعيد على تشجيع التجارة واستمرارها بين مسقط وممتلكاته في شرق أفريقيا التي اعترفت بسيادته، وكان

---

(٢٥) عصام محسن الجبوري: المرجع السابق ص٦١.

يرسل في كل عام بعضاً من سفنه لتأتي له بالذهب والعاج وغير ذلك من موارد تلك الجهات. وحتى المقاطعات التي لم تعترف بسيادته كان حريصاً على إقامة علاقات تجارية معها، ولذلك لم يلجأ إلى فرض سيطرته بالقوة العسكرية خوفاً من انقطاع تلك الصلات التجارية بينها وبين عمان(٢٦).

ومن ذلك يتضح بأن التعاون التجاري والاقتصادي العربي - الأفريقي قد وجد منذ أقدم العصور، واستمر إلى العصر الحديث. ومن خلال ذلك كله برز الدور الذي لعبه عرب حضرموت وعمان، في إعمار وإنعاش الأوضاع الاقتصادية لسكان شرق أفريقيا، ويتجسد أيضاً في اهتمام السلطان سعيد ودوره فيها. مما أدى إلى انتشار الرخاء الذي عم شرق أفريقيا نتيجة لاكتشافهم مناجم الحديد في «ماليندي وممباسة»، إضافة لما طرأ من تطور في صناعات الغزل والأقمشة التي أخذت تصدر من مقديشو إلى مصر(٢٧).

ولقد قام السلطان سعيد ببرنامج إصلاحي طبقه في شرق أفريقيا، فيما يتعلق بالعملة والرسوم الجمركية وإدخال زراعة القرنفل وإنعاش تجارة القوافل، وتشجيع الأجانب والعمل على

---

(٢٦) د. جمال زكريا قاسم: المرجع السابق ص٢٠٩.

(٢٧) عصام محسن الجبوري: المرجع السابق ص٦٣.

جذب الهنود إلى دولته، حتى أصبحت مدينة زنجبار أكبر ميناء على سواحل المحيط الهندي الغربية، وأكبر مستودع للتجارة الأفريقية الآسيوية، والمورد الرئيسي لتزويد العالم بالقرنفل، وأكبر سوق لتجارة العاج. وأصبحت أهميتها لا ترجع إلى تصدير القرنفل فحسب، وإنما إلى زيادة توغل تجارها داخل القارة وعودتهم إلى الساحل بالمنتجات الاستوائية(٢٨)

---

(٢٨) د. جلال يحيى: تاريخ أفريقية الحديث والمعاصر ص٢٠٧.

أولاً: تشجيع التجارة

كان السلطان سعيد يهتم بتشجيع التجارة، ولتحقيق هذا الهدف فقد كان حريصاً عند انتقاله إلى زنجبار أن يأخذ معه التجار العرب والهنود، وخاصة من طائفة «البانيان» من «الهندوس» الذين يسهمون بنشاط وافر في عمليات التجارة في مسقط، وكانوا يقبضون على زمام التجارة الدولية في الشرق.

وقام بتشجيع هؤلاء الهنود بالذهاب إلى زنجبار، والذين كانوا يعهدون في السلطان سعيد تسامحاً كبيراً ومعاملة طيبة، كانا يتضحان في تركه الحرية الدينية لهؤلاء «الهندوس» ليقوموا بشعائرهم، ومنحهم ما كانوا يتوقون إليه من مكانة في المجال الاقتصادي؛ كما استعان ببعض الأكفاء منهم في الأعمال الإدارية والاقتصادية.

وعلى الرغم من علاقة الهنود بشرق أفريقيا منذ القدم، إلا أن أعدادهم تزايدت في عهد السلطان سعيد، حتى بلغت أربعة آلاف نسمة، وإن أربعة أخماس التجارة الخارجية كانت في أيديهم. كما امتد الهنود بمراكزهم التجارية حتى جزيرة «مدغشقر» و«موزمبيق» و«جزر القمر».

وبمضي الزمن كثر عددهم، وأخذوا يستولون على الممتلكات من

العرب عن طريق الرهن والشراء(٢٩). وكان في مدينة زنجبار وحدها نحو ألف من هؤلاء التجار الهنود، الذين كانوا ينعمون بحماية السلطان سعيد، كما أعفاهم من الرسوم الجمركية وعهد إليهم بشؤونه المالية.

كما وفد على زنجبار كثير من مسلمي الهند الذين نعموا بنفس المعاملة، ولم تكن تخلو مدينة من مدن شرق أفريقيا من أفراد الجالية الهندية، الذين انتعشت تجارتهم وبدأوا يقتنون ثروات ضخمة، وزاد عددهم بدرجة ملحوظة حتى أصبح أكثر من ستة آلاف في عام (١٨٦٠). وقد ساعدهم في ذلك إعفاء السلطان سعيد من القيود الجمركية، وتشجيع التجارة؛ ولم يحتكر السلطان سعيد أية سلعة من السلع(٣٠).

كما وفد مع السلطان سعيد مئات من العرب وخاصة عرب عمان وحضرموت. فازدهرت التجارة وانتعشت بمقدمهم، إلى درجة لم تكن معهودة من قبل. وفي الوقت الذي اقتصر النشاط التجاري للهنود في الموانئ والمدن الساحلية في شرق أفريقيا، استطاع التجار العرب أن يغامروا في التوغل إلى المناطق الداخلية في القارة الأفريقية، التي لم يكن قد ارتادها أحد من قبل.

---

(٢٩) د. جمال زكريا قاسم: المرجع السابق ص٢٢٠.

(٣٠) د. حسن إبراهيم حسن: المرجع السابق ص٢٠٣.

واستقر كثيرون منهم في الداخل، وأسسوا المراكز التجارية التي جهدوا في تقويتها، حتى تحولت تلك المراكز التجارية إلى مدن، وبدأت تشع بعضاً من السيطرة والنفوذ للدولة العربية - الأفريقية في الداخل، حتى لقد اشتهر المثل السواحلي القائل(٣١): «إذا دقت الطبول في زنجبار رقص الناس طرباً في البحيرات».

وتلك السيطرة الداخلية ترتبط بقوافل التجارة، التي شجعت الصلات التجارية بين العرب والأفريقيين، وخاصة بين سكان الساحل في شرق أفريقيا وسكان الداخل في وسط القارة الأفريقية. وذلك بعدما توغل التجار العرب بحثاً عن السلع التي تشتهر بها تلك المناطق، التي أصبحت تصل إلى البحيرات الاستوائية مثل بحيرة «نياسا» و«بحيرة تنجانيقا» و«بحيرة فكتوريا» وأعالي النيل والكونغو.

وأنشأ السلطان طرقاً جديدة للمواصلات، كما قامت على هذا النهج العديد من المدن العربية على خطوط القوافل التجارية وذاع صيتها فيما بعد: مثل «طابورة» أو «جيجي» و«كاراجواي» ولم يكن السلطان سعيد يهدف إلى استغلال هذه المناطق استغلالاً طبيعياً، وإنما كان همه منصرفاً إلى القيام بدور الوسيط بين المناطق الاستوائية الداخلية، والجماعات الساحلية في شرق

---

(٣١) د. جمال زكريا قاسم: المرجع السابق ص.٢٢.

أفريقيا(٣٢).

ويمكن القول بأن نفوذ التجار العرب امتد إلى أغلب أركان شرق أفريقيا ووسطها تقريباً، وامتد إلى إقليم البحيرات العظمى والمجاري العليا للأنهار الكبرى، وذاع صيتهم من سواحل المحيط الهندي شرقاً حتى البحيرات الاستوائية غرباً، بدون أن تظهر لديهم أية أطماع أو محاولة للسيطرة على مقاليد الحكم بشكل قسري.

وبالمقابل لما قام به التجار العرب من النشاط الاقتصادي في القارة الأفريقية، فقد أخذت تلك الشعوب الأفريقية بحماية هذه النشاطات العربية التجارية التي تمر بأراضيهم، مما أدى إلى ازدهارها واستفادة العرب من الموارد الزراعية التي تشتهر بها تلك الأجزاء في التنمية الاقتصادية والتجارية. وتوضحت هذه الآثار الأفريقية في التجارة العربية في فترات لاحقة، وتم نقل هذه البضائع على السفن التجارية العربية إلى مختلف الأسواق في آسيا وأوربا، عن طريق موانئ شرق أفريقيا.

كما يمكن أن نتلمس بوضوح الأثر البارز الذي لعبته الدولة العربية ـ الأفريقية والسلطان سعيد بشكل خاص في شرق القارة الأفريقية، بتوطيدها لأواصر العلاقات الاقتصادية والاجتماعية

---

(٣٢) د. حسن إبراهيم حسن: المرجع السابق ص٢٠٤.

والسياسية بين العرب والأفارقة(٣٣).

---

(٣٣) عصام محسن الجبوري: المرجع السابق ص٦٦.

ثانياً: الجمارك والعملة

كانت الأنظمة الاقتصادية التي وضعها السلطان سعيد للدولة العربية ـ الأفريقية بسيطة ومرنة، وكانت لا تزيد على (٥٠٪) على الواردات التي تأتي إلى الموانئ في شرق أفريقيا، لتخفيف الأعباء التجارية وتشجيعها وإعفاء الصادرات الوطنية من أعباء الضرائب.

كما تميز عهد السلطان سعيد في شرق أفريقيا، بوضع نظام نقدي بسيط، يحل محل العملات المتعددة الجنسية التي كانت مستخدمة في شرق أفريقيا، كالريال النمساوي والاسباني والفرنسي. ولم يكد ينتهي عهد السلطان سعيد حتى اختفت العملات الأجنبية من السلطنة العربية ـ الأفريقية، وحل محلها النظام الجديد الذي استحدثه والذي كان يعتمد على الروبية الهندية(٣٤).

وقد كان دخل جمارك زنجبار أقل من دخل مسقط، إذا ما قورن قبل الثلاثينات من القرن التاسع عشر. ثم أخذ هذا الرقم يتزايد بشكل سريع بعدما أدخل السلطان سعيد التنظيمات والإصلاحات الاقتصادية في شرق أفريقيا، حتى أصبح دخل جمارك زنجبار

---

(٣٤) د. جمال زكريا قاسم: المرجع السابق ص٢٢١.

حوالي (١٥٠) ألف ريال نمساوي في العام. أما قبل تلك الإصلاحات والتنظيمات الاقتصادية، فإن دخلها كان لا يتعدى (٣٠) ألف ريال نمساوي في العام.

وبذلك يمكن القول بأن مجموع دخل السلطان سعيد من جمارك مسقط وزنجبار وبندر عباس كان لا يقل عن (٣٥٠) ألف ريال نمساوي أو سبعين ألف جنيه استرليني في العام(٣٥).

---

(٣٥) جون - جي - كيلي: بريطانيا والخليج ج١ ص٣٨٤.

ثالثاً: إدخال زراعة القرنفل

وقد اهتم السلطان سعيد باستقلال زنجبار نفسها بالقيام بمشروعات زراعية، وتشجيع زراعة قصب السكر والقرنفل. وتعتبر زراعة القرنفل من أهم أعماله الإدارية في زنجبار وشرق أفريقيا(٣٦) وذات فائدة عظمى ودائمة لاقتصادها.

والغريب أن جهوده لدعم زراعة القرنفل قوبلت بمعارضة، ولكنه ثابر حتى نجح في غرضه، فقد فشلت المحاولة الأولى لإدخال القرنفل من «جزر موريشيوس» إلى زنجبار عام (١٨٠١)، وكان الفرنسيون قد زرعوها هناك لأول مرة عام (١٧٧٧). ولكن المحاولة الثانية بعد سبعة عشر عاماً أثبتت نجاحاً. وبعد مصادرة مزرعة القرنفل الأصلية والوحيدة في زنجبار، أمر السلطان سعيد بتعميم زراعة القرنفل بعد التهديد بمصادرات أخرى.

وبذلك وضع الحجر الأساسي للزراعة الأساسية في زنجبار وشرق أفريقيا، والتي أدت إلى رخاء هائل، فقد ذكر الميجر « وف. ب. بيرسي» ما يلي(٣٧): «إن مسلك السلطان سعيد كان حيال زراعة القرنفل في زنجبار وبما يشهد بأنه رجل ذو سلطة غير

---

(٣٦) جون - جي - كيلي: المرجع السابق.

(٣٧) وندل فليبس: تاريخ عمان ص١٢٦.

عادية وشخصية قوية، كما يمكن اعتبار شجرة القرنفل نصباً تذكارياً - وهي نصب تذكاري جميل أيضاً - لتخليد ذكرى السلطان سعيد، صانع زنجبار».

إضافة إلى تشجيع السلطان سعيد القوي لزراعة أشجار القرنفل على نطاق واسع، فإن جو جزيرتي زنجبار وبمبا قد ساعد على ازدهارها حتى أصبحت لا تقل أهمية عن تجارة العاج أو أي محصول رئيسي آخر، وما زالت زنجبار تنتج (٨٠٪) من غلة القرنفل في العالم(٣٨).

---

(٣٨) د. حسن إبراهيم حسن: المرجع السابق ص٢٠٢.

رابعاً: الحماية الاقتصادية

كان السلطان سعيد مدركاً لضمان الازدهار الاقتصادي لشرق أفريقيا، بأن يعمل على حماية التجارة من المنافسات التي كانت تتعرض لها. وبرغم أنه كان يؤمن بالحرية الاقتصادية، إلا أنه وجد نفسه مضطراً إلى تطبيق سياسة احتكارية لضمان المركز الاقتصادي لشرق أفريقيا، لذلك حرم على طول الساحل الشرقي لأفريقيا، والممتد من مصب نهر «البانجاني» إلى «كلوة» تصدير المطاط والعاج تحت أي علم خلاف علم السلطنة العربية ـ الأفريقية، وإن كنا لا نجد احتكارات أخرى باستثناء ذلك(٣٩).

كما نجد السلطان سعيد يبني أسطولاً بحرياً ضخماً في عام (١٨٣٤)، يضم بعض المدمرات والطرادات ليحمي طرق المواصلات بين بلاده وبلاد العرب، ويؤمن سبل الملاحة، ويحقق مشروعاته التجارية التي تأتي من الموارد الكثيرة التي تغنيه عن فرض الضرائب المباشرة(٤٠).

---

(٣٩) د. جمال زكريا قاسم: المرجع السابق ص٢٢١.

(٤٠) د. حسن إبراهيم حسن: المرجع السابق ص٢٠٢.

خامساً: فتح أسواق خارجية

وقد ترجع شهرة السلطان سعيد في العالم الخارجي إلى فتح موانئ شرق أفريقيا للدول الأجنبية، حتى تحولت زنجبار إلى أعظم ميناء في الأطراف الجنوبية الغربية للمحيط الهندي، وحتى أصبحت زنجبار المستودع الرئيسي للتجارة الأفريقية - الآسيوية. وفي خلال عشرين عاماً من نقل السلطان سعيد عاصمة بلاده من مسقط إلى زنجبار أصبحت زنجبار واحدة من ثلاث أو أربع مراكز رئيسية للتجارة في المياة الغربية للمحيط الهندي(٤١).

كما كان السلطان سعيد يهتم بفتح أسواق جديدة خارجية لمنتجات سلطنته، بعدما كانت الأسواق التقليدية مقصورة على ساحل المحيط الهندي الممتد من عدن إلى بومباي وعلى مصر والخليج والجزيرة العربية. ولهذا اتجه السلطان سعيد ببصره إلى أسواق أوربا وأمريكا لأهمية هذه الأسواق في رواج تجارة شرق أفريقيا، ورحب بالتجار الأوربيين والأمريكيين الذين زاروا زنجبار، كما عقد معاهدات مع الولايات المتحدة الأمريكية عام (١٨٣٣)، وبريطانيا عام(١٨٣٩)، وفرنسا عام(١٨٤٤)، وسمح بإنشاء قنصليات لهذه الدول في بلاده. وعندما توفي السلطان سعيد كانت

---

(٤١) د. جمال زكريا قاسم: المرجع السابق ص٢٢٢.

أسواق أوربا وأمريكا تستهلك أكثر من ثلث منتجات أفريقيا المارة بزنجبار، وكان قد دخل ميناءها تسعون سفينة أوربية وأمريكية في عام (١٨٥٧)(٤٢).

كما عرف عن السلطان سعيد حبه الكبير للتجارة وممارسته لها، وكان إلى جانب كونه حاكماً ورجل سياسة، تاجراً ماهراً نظم تجارة بلاده مع العالم الخارجي، ويقوم بالأعمال التجارية لحسابه الخاص. وابتنى لهذا الغرض أسطولاً تجارياً ضخماً كان يستخدمه في نقل البضائع، ويحمل منتجات زنجبار ومقديشو وممباسة وباقي المناطق الأفريقية إلى موانئ العالم الخارجي(٤٣)، وبذلك أخذ السلطان سعيد يتاجر مباشرة مع الدول الأوربية ويرسل سفنه إلى «مرسيليا» و«جنوة» و«لندن» وغيرها، وقد أثر ذلك على نمو مدينة زنجبار وازدهارها بعدما كانت مجرد قرية صغيرة في القرن الثامن عشر، واستطاع أن يجعل دولته في شرق أفريقيا، ثالث دولة تجارية في المحيط الهندي(٤٤).

---

(٤٢) د. حسن إبراهيم حسن: المرجع السابق ص٢٠٤.

(٤٣) عامر محمد الحجري: مؤتمر دراسات تاريخ شرق الجزيرة العربية ج٢ ص٧٩٢.

(٤٤) د. حسن إبراهيم حسن: المرجع السابق ص٢٠٤.

المجتمع العربي ـ الأفريقي
في شرق أفريقيا

كان سكان شرق أفريقيا في عهد السلطان سعيد يتألفون من طبقتين:

الطبقة الأولى: السكان الأصليون

وتعتبر هذه الطبقة من سكان البلاد الأصليين، وينتشرون على طول ساحل زنجبار وفي داخل البلاد. ولم يتدخل السلطان سعيد في شؤونهم بل منحهم حريتهم وولّى على كل قبيلة أحد زعمائها.

ويعتبر سكان زنجبار خليطاً من أجناس مختلفة أسهم فيها أهالي «شيراز» من الفرس، وعرب حضرموت، وقبائل «البانتو» الأفريقية، بقدر كبير من موجات الهجرة. ولما كان البانتو ليسوا زنوجاً خالصين بل هم خليط من عناصر حامية وزنجية، فإنه يمكن القول بأن نسبة مرتفعة من دماء السكان الحاليين حامية عربية، ولم يبق إلا عدد صغير من «الحميد» و«التمباتو» وهم أهل زنجبار الأصليون، وكان للحضرميين وربما لليمنيين دور كبير في تلك الفترة(٤٥).

لقد كان لاستقرار عرب الحضارمة في شرق أفريقيا أثر كبير في ظهور سمات لشعب جديد، أسهم العرب ومن توافد معهم من الفرس من شيراز إسهاماً كبيراً في بنائه. وهم الشعب السواحيلي الذي يعتبر ثمرة اختلاط الجنس الحامي والسامي الحضرمي

---

(٤٥) وندل فليبس: المرجع السابق ص١٤٠.

بالبانتو، ثمرة التزاوج الذي تم بين هذه العناصر(٤٦).

كما لعب الدين الإسلامي دوراً كبيراً لأنه لم يعرف الحاجز اللوني الذي لا يسمح للرجل الأبيض بأن يندمج ويختلط مع قرينه صاحب البشرة السوداء، فقد كان لسمو الحضارة الإسلامية في هذا الشأن أثره في انتشار الإسلام وتكوين الشعب السواحيلي بالاختلاط بين العناصر العربية الإسلامية والفارسية بقبائل البانتو الأفريقية(٤٧).

وقد ظل شرق أفريقيا يرى حتى وقت متأخر هجرة عائلات عربية إليه من منطقة جنوب الجزيرة العربية، وتكاثر عددهم بشكل ملحوظ مع مرور الزمن، حيث كان المهاجرون العرب إلى شرق أفريقيا سرعان ما يندمجون مع المجتمع الأفريقي ويتخذونه وطناً لهم ويعتبرهم سكانه مواطنين(٤٨).

وأفارقة زنجبار ينقسمون إلى تجمعين أساسيين: الشيرازيون وأفارقة القارة الذين هاجروا خلال المائتي عام الماضية. ويقع موطن «الوحاديمو» في شرق وجنوب جزيرة زنجبار و«الواتومباتو» في

---

(٤٦) عائشة السيار: دولة اليعاربة وشرق أفريقيا ص٩٢.

(٤٧) محمد فايق: عبد الناصر والثورة الأفريقية ص.١١.

(٤٨) د. عبد القادر زبانية: مؤتمر دراسات تاريخ شرق الجزيرة العربية ج٢ ص٧٥٢.

جزيرة تومباتو و«الوابما» في جزيرة بمبا، وبمرور الوقت انتقل كثيرون من مواطنهم(٤٩).

الطبقة الثانية: المهاجرون العرب والهنود

يعتبر العرب والتجار الهنود الذين وفدوا إلى شرق أفريقيا من الطبقة الثانية، والمولّدون أي الذين ولدوا من آباء عرب وأمهات وطنيات.

وقد كان السلطان سعيد بعيداً عن التعصب العرقي، فقد أدرك أن مصلحة أفريقيا تتفق ومصلحة طبقة البانيان من الهندوس، وأن البانياني الواحد يجر بعده عشرة من بني قومه(٥٠)؛ ولذلك شجعهم وقدم لهم كل عون، وسمح لهم بممارسة شعائرهم.

---

(٤٩) وندل فليبس: المرجع السابق ص١٢٨.

(٥٠) رودولف سعيد روث: المرجع السابق ص١٨٧.

العادات والتقاليد

مجتمع شرق أفريقيا معظمه من المسلمين وعلى شيء من التهذيب، وقد تركوا كثيراً من عاداتهم القديمة، شأنهم شأن العرب قبل الإسلام. كما تأثروا كثيراً بالعادات والتقاليد العربية الإسلامية، وكذلك بالملابس.

فهم يرتدون الزي العربي التقليدي، فالرجال يلبسون ثوباً طويلاً يسمونه «دشداشة» يشدون فوقه نطاقاً(٥١)، علماً بأن نفس هذه الملابس تلبس في منطقة الخليج والجزيرة العربية، ولها نفس التسمية (الدشداشة) ويبدو أن هذه الكلمة عربية مأخوذة من سلطنة عمان بحكم علاقة هذه الدولة بشرق أفريقيا.

وهناك الكثير من الملابس التي تشبه ملابس الخليج والجزيرة العربية، فمنهم من يلبس القفطان والعباءة وينتعلون النعال، في حين تلبس النساء السراويل الطويلة وثوباً يتدلى إلى الركبتين يشددن فوقه نطاقاً وعلى رؤوسهن نسيج يشبه الكوفية، يعلوها حزام كعقال الرجال. ويصففن النقود الذهبية على رؤوسهن، ويكثرن من الأساور والخواتم، ويستعملن القلائد والسلاسل الذهبية التي توضع حول العنق وترخى إلى الوسط. وتختلف

---

(٥١) د. حسن إبراهيم حسن: المرجع السابق ص٢٠٨.

أنوع تلك الحلي من ذهبية إلى فضية حسب مركز المرأة الاجتماعي ودخلها المالي، ويصفرن وسط جباههن بالزعفران، ويزججن الحواجب، ويكحلن العيون، ويصبغن أيديهن وأرجلهن بالحناء(٥٢).

وهنا نلاحظ الشبه الكثير مع النساء العمانيات اللواتي يلبسن ويتزين مثلهن إلى حد كبير، مما يدل على تأثر نساء شرق أفريقيا بالنساء العمانيات. تقول سالمة بنت السلطان سعيد(٥٣): «فالزي الذي تلبسه النساء واحد ويتكون من قميص ينحدر إلى ركبتها وسروال عريض طويل مربوطة نهايته عند الكاحل وعصابة من الحرير تلف بها شعرها».

وهناك عادة أخرى شبيهة لدى النساء العمانيات، فمثلاً النساء من العامة يتجولن نهاراً لقضاء لوازم منازلهن، والخاصة من المخضرمات كثيرات التحجب ولا يبارحن منازلهن نهاراً، وربما خرجن ليلاً للتنزه، وإذا ما لقيهن رجل في الطريق عرج يمنة أو يسرة تأدباً منه أو وقف مختبئاً رعاية لحرمتهن(٥٤).

تقول سالمة بنت السلطان سعيد: «والمسلمات يتجنبن الظهور في الشوارع في وضح النهار، ولذلك جرت العادة على أن يكون

---

(٥٢) د. حسن إبراهيم حسن: نفس المرجع ص ٢٠٨.

(٥٣) السيدة سالمة بنت سعيد: مذكرات أميرة عربية ص١٣٥.

(٥٤) د. حسن إبراهيم حسن: المرجع السابق ص٢٠٩.

خروجهن في الصباح الباكر أو بعد حلول الظلام، ولم تكن في أيامي في زنجبار شوارع مضاءة وكان على السائر في الطريق أن يؤمن وسائل الإضاءة لنفسه، وكنا نستعمل لهذه الغاية الفوانيس الكبيرة التي نتفنن في صنعها»(٥٥).

وهناك في المجتمع السواحلي بعض الأفراد الذين يشتغلون بالتجارة، والبعض الآخر بالسمسرة، في حين يكتفي الآخرون بما يحصلون عليه من غلة الأرض. أما في الأقاليم الداخلية فتزرع النساء الذرة والبطاطا وينسجن الحصر وغيرها من المنسوجات الخشنة، ويقضي الرجال أوقاتهم في الصيد والقنص معتمدين على النساء في قضاء لوازم بيوتهن وحرث أراضيهم(٥٦).

ومما سبق يتضح عمق الروابط والعلاقات العربية ـ الأفريقية في العادات والتقاليد لدى مجتمع شرق أفريقيا، الذي تأثر بهذه العادات والتقاليد العربية، نتيجة لاختلاطه بأبناء الخليج والجزيرة العربية، وخاصة عرب عمان وحضرموت. وبالمقابل فإن العرب أيضاً تأثروا بالمجتمع السواحلي، وأخذوا عنه الكثير من العادات والتقاليد.

---

(٥٥) السيدة سالمة بنت سعيد: المرجع السابق ص٢١٦.

(٥٦) د. حسن إبراهيم حسن: المرجع السابق ص٢٠٩.

منع تجارة الرقيق

لقد لعب السلطان سعيد دوراً كبيراً في منع تجارة الرقيق، عندما وقع اتفاقية مع بريطانيا عام (١٨٢٢)، تقضي بتحريم تجارة الرقيق من كل نوع، ومنحت سلطة التفتيش والاعتقال للسفن البريطانية لأي سفينة تمارس الرقيق، وخاصة إذا عرفنا بأن المصادر الرئيسية لتجارة الرقيق كانت في شرق أفريقيا، التي تقع ضمن ممتلكات السلطان سعيد.

وبمقتضى تلك المعاهدة تعهد السلطان سعيد بتحريم تجارة الرقيق خارج ممتلكاته الأفريقية ـ الآسيوية. وهذه المعاهدة نصت على تحريم تجارة الرقيق للدول المسيحية، وتعيين وكيل للحكومة البريطانية في ممتلكات السلطنة العربية ـ الأفريقية، لمراقبة هذه التجارة واعتقال أي سفن تمارس هذه التجارة. وبعد مرور أربعة أشهر فقط تم ضبط إحدى السفن تحمل بعض الرقيق للدول المسيحية.

ويصور لنا هذا المنع لتجارة الرقيق بعد نظر السلطان سعيد والروح النبيلة للتضحية بالذات(٥٧)، أو كما قال «السير ريتشارد بيرتون» فيما بعد: لقد كلفته صداقته لنا ثمناً باهظاً، لقد كان هذا

---

(٥٧) وندل فليبس: المرجع السابق ص.١٤٠.

التنازل عن ممارسة تجارة الرقيق يقضي على ربع دخله السنوي وقدره (٨٠) ألف جنيه، وكان قد فقد رعاياه من الأفريقيين أيضاً ربحاً كبيراً كانوا يحصلون عليه من ممارستهم لتلك التجارة، ولم يحصل السلطان سعيد على أي تعويض من الحكومة البريطانية مقابل منعه ممارسة تجارة الرقيق، علماً بأن بريطانيا سبق لها أن قدمت لاسبانيا تعويضاً قدره (٤٠) ألف جنيه عام (١٨١٧) عن قيام بعض البريطانيين بتلك الأعمال(٥٨).

---

(٥٨) وندل فليبس: نفس المرجع ص١٤٠.

الثقافة
والمؤثرات العربية ـ الأفريقية

بدأت الثقافة العربية الإسلامية في الانتشار والازدهار في شرق أفريقيا مع الهجرات العربية، التي جابهت الثقافات المحلية الموروثة للسكان الأصليين. فبرزت مشكلة الملاءمة والالتقاء فيما بين هاتين الثقافتين، ونتجت عنها ثقافة عربية ـ أفريقية مشتركة على الساحل الشرقي من أفريقيا.

فقد ذكر الدكتور يوسف فضل حسن، أن ما يعكس عراقة الصلة بين المنطقتين الجزيرة العربية وأفريقيا شدة التشابه العرقي واللغوي والثقافي بين الشعوب الناطقة باللغات السامية القاطنة في الجزيرة العربية، فقبل ظهور الإسلام استقرت بعض المجموعات الأفريقية التي هاجرت إلى الجزيرة العربية وانصهرت في بوتقة القبائل العربية عن طريق الولاء والانتماء الكامل، وبعد ظهور الإسلام حمل العرب رسالتهم الجديدة باتجاه الغرب إلى أفريقيا متجهين بنفس الطريق التي سلكها أجدادهم من قبل بهدف التجارة أو الهجرة، وكانوا في ذلك حملة لأهم مظهرين من مظاهر الثقافة: الإسلام واللغة العربية(٥٩).

واستمرت هذه الهجرات خاصة من عرب حضرموت وعمان بمن سبقهم إلى شرق أفريقيا، مما كان له أثر واضح لمؤثرات الثقافة والحضارة العربية التي لم تتوقف على أرض شرق أفريقيا، وإنما

---

(٥٩) هدى سليم عبد الباقي: الروابط بين العرب والأفارقة السود والأمريكيين السود ص٢٤.

امـتـدت إلى داخل ووسـط القـارة وحـوض الكونـغـو، وتـزايد عـدد السكان الـعـرب بشكل مـطرد في خـلال عـهـد الدولة العـربيـة - الأفريقية(٦٠).

---

(٦٠) د. رأفت غنيمي الشيخ: أفريقيا في التاريخ المعاصر ص٢٣٧.

العلاقة بين اللغة العربية والسواحلية

كان لانتشار الإسلام أثر كبير في نشر اللغة العربية بين الأقوام التي دخلها الإسلام، وبالرغم من أن انتشاره كان بطيئاً في شرق أفريقيا. ويعلق «السير توماس أرنولد» على ذلك بقوله: إن العرب لم يعملوا على صبغ البلاد بالصبغة الإسلامية، وأن الإسلام لم يقم في شرق أفريقيا نتيجة فتح أو توسع عسكري، وإنما الذين قاموا به في الغالب جماعات من التجار العرب كانت تعنيهم التجارة أكثر مما يعنيهم نشر الإسلام(٦١).

ومع ذلك يمكن القول بأن عامل الدين لم يكن العامل الوحيد الذي ساهم في انتشار اللغة العربية، والدليل على ذلك أن الدين الإسلامي دخل واستقر بين شعوب أفريقيا، ولم تكن اللغة العربية معروفة عند تلك الشعوب. وإنما هناك عوامل أخرى مثل التقارب الكبير في المظاهر اللفظية والنحوية بين بعض اللهجات واللغات المحلية الأفريقية.

كما أننا نجد حوالي (٢٠٪) من مصطلحات اللغة السواحلية التي تتكلمها دول في شرق أفريقيا حالياً مثل «تنزانيا» و«كينيا» و«أوغندا» و«زائير» و«بوروندي» مأخوذة من اللغة

---

(٦١) عائشة السيار: المرجع السابق ص٩٢.

العربية(٦٢).

ويقول د. يوسف فضل حسن عن اللغة السواحلية وعلاقتها باللغة العربية: «ولعل من أهم نتائج التواصل العربي ـ الأفريقي لبضعة قرون نشأة الثقافة السواحلية واللغة السواحلية، وقد ظهرت هذه الثقافة في نحو القرن الثامن الميلادي، وتمركزت في منطقة شرق أفريقيا وبعض جزر المحيط المجاورة، واتسعت دائرة اللغة السواحلية (هجين عربي ـ أفريقي) في العهد الاستعماري فشملت أجزاء من وسط أفريقيا، وفي عام (١٩٦٠) اعتمدت جمهورية تنزانيا المتحدة لغة قومية»(٦٣).

وتنتشر اللغة السواحلية على طول الساحل الشرقي من القارة، وهي خير مثال على تأثر العلاقات العربية ـ الأفريقية في الثقافة وخاصة اللغة، ودليل على عمق هذه العلاقات وأثرها في المجتمع الأفريقي الشرقي، وخاصة أن هذه اللغة السواحلية نتاج لاختلاط المهاجرين العرب بدماء البانتو ولغاتهم.

فقد تزوج العرب من نساء البانتو الزنوج، وسمي النتاج بالأمة السواحلية التي تكلمت اللغة السواحلية. كما انتشرت هذه اللغة بين السكان الأصليين مثل «الديجو» و«الباو» و«الجلا» وأصبحت لغة المعاملات التجارية والمالية.

---

(٦٢) عصام محسن الجبوري: المرجع السابق ص٥١.

(٦٣) هدى سليم عبد الباقي: المرجع السابق ص٢٥.

وتمتاز اللغة السواحلية بخفتها ورقتها، وهي لطيفة تطرب السامع، وقد جاءت حركاتها الحلقية من اللغة العربية، بينما أخذت بعض التعبيرات من الفارسية والهندية. وتعتبر هذه اللغة حالياً كما ذكرنا اللغة الرسمية القومية على طول ساحل شرق أفريقيا، وكانت تكتب بالأبجدية العربية حتى منتصف القرن التاسع عشر، ولكن الاستعمار الأوروبي قام بتغير حروفها الأبجدية العربية إلى اللاتينية حتى تبعد عن أصولها العربية، بينما يوجد الكثير من المعاملات التجارية والصكوك الشرعية لدى أهالي شرق أفريقيا مكتوبة بالأبجدية العربية(٦٤). وقد كانت هذه اللغة غنية بالأدب والشعر لتأثرها بالعربية.

ولا يزال يوجد الكثير من التشابه في شرق أفريقيا مع الحضارة العربية الإسلامية، وخاصة في المناصب والمصطلحات الإدارية ونظم ملكية الأرض، كما وجد قانون عرفي.

وقد عمل المستعمرون البريطانيون في شرق أفريقيا فيما بعد، على تفتيت تلك الدولة الإسلامية العربية، وبدأوا يخضعون كل منطقة من شرق أفريقيا لسيطرتهم. وبدأوا تشجيعهم للنظم والتقاليد المحلية وإبقاءهم لنفوذ زعماء القبائل، لغرض تمزيق وحدتهم. ولكن الذي حدث دفعهم للتمسك ببقائهم وثقافتهم العربية

---

(٦٤) د. أحمد إبرهيم ذياب: لمحات من التاريخ الأفريقي الحديث ص٧٣.

ـ الأفريقية الموروثة المشتركة بكل ما يملكونه من إمكانيات(٦٥). وقد أراد الاستعمار تحطيم العلاقات العربية ـ الأفريقية ليربط الأفارقة بالثقافة الأوربية.

ومثلما أثرت الثقافة العربية على شعوب شرق أفريقيا، نجد أن هنالك تأثيراً من أفريقيا على الثقافة العربية وحضارتها، ونجد الكثير من المصطلحات والكلمات مأخوذة من شرق أفريقيا في اللهجات المحلية والثقافة العربية المحلية، في كل من ساحل حضرموت وعمان والإمارات العربية، وأحياناً في مختلف دول الخليج العربي.

وكذلك في الفن، فنجد كثيراً من الأغاني والألحان والرقصات الشعبية في منطقة الخليج العربي مأخوذة من شرق أفريقيا، على سبيل المثال رقصات «ليوا، الحبان، الطنبورة» .. إلخ.

ومن ذلك يتضح لنا مدى التأثير المتبادل بين الحضارة العربية في الخليج وجنوب الجزيرة العربية وشرق أفريقيا، وقد توضحت لنا أسباب تقبل الشعوب الأفريقية للثقافة العربية، وأن تلك الأسباب كانت قد مهدت للغة والثقافة العربية الإسلامية لتسودا في أرجاء شاسعة من شرق أفريقيا.

ومع ذلك فإن اللغات واللهجات والثقافات الوطنية للسكان

---

(٦٥) عصام محسن الجبوري: المرجع السابق ص٥١.

الأصليين بقيت بجانب لغة القرآن، وهذا خير دليل لروح التسامح الحضاري العربي ـ الإسلامي في التعايش مع إخوانهم الأفارقة ومعاملتهم بالحسنى، مما جعل الشعوب الأفريقية تنظر للدين الإسلامي وحضارته كمنقذ لها من الجهل، وإلى القرآن الكريم كمنظم لمختلف أوجه حياتها المادية والمعنوية(٦٦).

(٦٦) عصام محسن الجبوري: نفس المرجع السابق ص٥١.

التنظيمات السياسية والإدارية
في الدولة العربية ـ الأفريقية

أولاً: حدود السلطنة

لقد كانت حدود السلطنة العربية ـ الأفريقية متسعة حتى شملت معظم ساحل أفريقيا الشرقية، وبلغت حدود هذه السلطنة شمالاً حتى حدود الحبشة الجنوبية، وجنوباً حتى موزمبيق البرتغالية، ولم يجد السلطان سعيد قوة أجنبية تقاسمه السلطة وتنازعه الملك.

وقد ازدهرت ونمت المدن الساحلية في أفريقيا الشرقية في عهده، فازدحمت واكتظت بالسكان ووفدت عليها البضائع الأجنبية وازدهرت فيها التجارة، وخاصة مدينتي «مقديشو» و«كلوا».

وكان السلطان سعيد يهتم بعناية وتطوير مدينة مقديشو، فلم يبخل عليها بالمال لإنشاء المرافق العامة وإصلاح الطرق وبناء الأسوار، كما مد بصره إلى جزيرة «مدغشقر» وعمل على ضمها إلى ممتلكاته، فتزوج من ملكتها عام (١٨٣٢) التي فتحت الطريق لتجارته ودفعت له ثلاثين ألف ريال في كل عام، وأخذ أبناء شرق أفريقيا يستقرون في هذه الجزيرة.

وفي الوقت الذي أخذ فيه نفوذ السلطان يمتد إلى الجنوب، أخذ نفوذه يضعف تدريجياً في الجزء الشمالي من بلاده، وقد يرجع ذلك إلى التنافس بين القبائل العربية البدوية في المنطقة الواقعة

جنوبي نهر «جوبا»، ولم يكن عند هذه القبائل العربية البدوية أبغض من الخضوع لنظام مهما بلغ شأنه أو قوته، وكانت القبائل الصومالية وقبائل البانتو من هذا النوع من البدو الأشداء المحاربين، ولم تنجح محاولة السلطان سعيد في كسبهم لسيادته(٦٧).

أما حدوده العربية في قارة آسيا فقد بلغت دولة عمان وبندر عباس والجزر الواقعة في مضيق هرمز في مدخل الخليج العربي، إضافة إلى حدوده في منطقة «مكرطن» الإيرانية و«بلوشستان» الباكستانية وخاصة منطقة «الجوادر» و«شهبار».

---

(٦٧) د. حسن إبراهيم حسن: المرجع السابق ص٢٠٧.

ثانياً: الحكومة

لقد كانت حكومة السلطان سعيد في غاية البساطة، فليس ثمة مصالح ولا وزراء ولا جمع من كبار الموظفين، حتى الضرائب لم يكن يعهد بجبايتها إلى موظفي الدولة، وإنما كان يعهد إلى زعماء العشائر لجمع تلك الضرائب.

كما كان جمع الرسوم الجمركية بأيدي جماعة من التجار البانيان من الهنود الأغنياء، عن طريق الالتزام بدفع مبلغ معين من المال له، مقابل تحصيل هذه الرسوم. وكان نتيجتها أن استطاع هؤلاء البانيان من الهنود أن يجمعوا ثروات ضخمة في ظل هذا النظام والحكم، حتى أن أحدهم توفي ولديه ثروة تقدر بثلاثة ملايين ريال، أي ما يقارب (٦٥٠) ألف جنيه استرليني(٦٨).

وكان السلطان سعيد يمضي معظم أوقاته في إقامة نظام سياسي واقتصادي جديد في شرق أفريقيا، وكان قد تمكن بالقوة وبالسياسة من إخضاع كل ساحل شرق أفريقيا لحكمه، من «دوارشيخ» إلى رأس «دلجادو». وكان حريصاً في إدارة ممتلكاته الشاسعة في شرق أفريقيا، بأن يعين في كل مقاطعة حاكماً محلياً من أهل البلاد يدين له بالتبعية والولاء. وإن كنا نراه أحياناً يفقد

---

(٦٨) د. حسن إبراهيم حسن: نفس المرجع ص٢٠٥.

الثقة بالحكام المحليين، مما يدفعه للاستعاضة عنهم بأعوانه من مسقط، كما كان يمدهم بحاميات من جيشه تكون بمثابة نواة، ومن ثم يحاول الحكام المحليون تنمية قواتهم بنفسهم، بشكل يحفظ للحاكم هيبته ومركزه وللسلطنة نفوذها(٦٩).

ولكن سعيداً ترك لكل مدينة حرية تصريف شؤونها في توافق مع المدن الأخرى، ولم يتدخل في شؤونها الداخلية، إلا في حالة قيام ثورة أو اضطرابات أو حرب بين القبائل. وهكذا كان نظام حكمه يهدف إلى حماية هذه المدن من هجوم أية دولة أجنبية، ويحرم في نفس الوقت على الأهالي الدخول في صلات مع هذه الدول حتى لا تشكل خطراً على وحدة الساحل الشرقي الأفريقي واستقلاله(٧٠).

---

(٦٩) د. جمال زكريا قاسم: المرجع السابق ص٢٢٢.

(٧٠) د. جلال يحيى: المرجع السابق ص٢٠٥.

ثالثاً: النظام القضائي

لقد كان القضاء في عهد سعيد على درجة كبيرة من البساطة، وظل القرآن الكريم هو أصل التشريعات ومصدر الأحكام. وكان السلطان يحكم في القضايا المهمة بنفسه، أما القضايا الأقل أهمية فكان يتركها لابنه الأكبر خالد أو لحاكم مدينة زنجبار، أما القضايا العادية فقد تركت للقضاة الذين كان يعينهم للحكم فيما يحدث من منازعات تجارية أو غيرها بين رعاياه(٧١).

وهذا يعني بأنه لم يكن هناك محاكم بالمعنى المفهوم، وقد شهد الأجانب والرحالة الذين زاروا شرق أفريقيا للسلطان سعيد بالعدالة والمساواة بين رعاياه، ولم يعتمد في تنفيذ سياسته إلا على ثلاثمائة من أفراد جنده المسلحين بالرماح والقسي، كان قد جاء بهم من جزيرة «سقطرة» من «المهريين»، وكانت هناك فرقة من الجند من السكان الأفارقة تقوم بحراسة الطرقات وتقبض على المجرمين(٧٢).

---

(٧١) د. جمال زكريا قاسم: المرجع السابق ص٢٢٢.

(٧٢) د. حسن إبراهيم حسن: المرجع السابق ص٢٠٥.

رابعاً: البحرية

كان السلطان سعيد يهتم بأسطوله البحري، فقد شاهد «اللفتنانت أ.ج. هارت» من الأسطول الملكي البريطاني بعض قطع البحرية لأسطول السلطان سعيد في ميناء زنجبار في شهر فبراير عام (١٨٢٤)، وكانت راسية هناك سفينة حربية مسلحة بـ(٧٤) مدفعاً تسمى «ليفربول» وفرقاطة مسلحة بـ(٥٠) مدفعاً وأخرى بـ(٣٦) مدفعاً وطراد بـ(٢٠) مدفعاً وسفينة طراز (برك) مسلحة بـ(١٠) مدافع بالإضافة إلى سفينة أخرى. وفي شهر سبتمبر من نفس العام قام زائر أمريكي بعد السفن الراسية في ميناء مسقط فوجد بالإضافة إلى السفينة «ليفربول» خمس سفن أخرى بواقع (٣٠) مدفعاً في كل منها، إلى جانب ست سفن أخرى من مختلف الحمولات، كانت إحداها تحمل (٢٢) مدفعاً واثنتان أخريان (١٨) مدفعاً في كل منهما واثنتان (١٢) مدفعاً في كل منهما(٧٣).

وقد بلغ مجمل السفن الحربية لدى أسطول السلطان سعيد حوالي خمس وسبعين سفينة، وقد ذكر أحد الضباط البحرية البريطانية عندما شاهد ذلك الأسطول الكبير قوله(٧٤): «إنه لو

---

(٧٣) جون. بي. كيلي: المرجع السابق ج١ ص٣٩٢.

(٧٤) وندل فليبس: المرجع السابق ص١٣٧.

كان خطر للسلطان سعيد أن يسعى من أجل التفوق البحري في المحيط الهندي، لوجد البريطانيون أمامهم خصماً عنيداً جداً للتعامل معه».

وعندما جاء «ادموند روبرتس»(٧٥) إلى واشنطن كتب عن السلطان سعيد يقول: «إنه يمتلك قوة بحرية أكثر كفاءة من كل القوى البحرية للأمراء الوطنيين مجتمعين، من رأس الرجاء الصالح حتى اليابان. وموارده أكثر مما يكفي احتياجاته، وهي مستمدة من التجارة، حيث يملك هو نفسه عدداً كبيراً من السفن التجارية، ومن الرسوم الجمركية على البضائع الأجنبية، ومن أموال الجزية والهدايا التي يتلقاها من أمراء مختلفين مما كان يدر عليه مبلغاً ضخماً كل عام».

---

(٧٥) وندل فليبس: نفس المرجع ص١٣٧.

خامساً: شخصية السلطان سعيد

كان السلطان سعيد يعتبر من أقوى حكام المحيط الهندي بلا منازع، فقد كان أنفذهم كلمة وأشدهم بأساً وأكثرهم احتراماً. كما اشتهر السلطان بالبساطة والتواضع، وكان يرتدي الرداء العربي البسيط، ويضع على رأسه العمامة الملونة ولا يتحلى بالذهب والجواهر كعادة الحكام والملوك.

وكان منزله متواضعاً من طابقين ولم يجاوز حرسه اثني عشر فارساً من أهل بومباي، في حين كان السائحون الأجانب يستغربون عندما كانوا يشاهدون السلطان، وما كانوا يسمعون عن صيته العظيم وما لمسوه من بساطته وكرمه واهتمامه بالوطنيين والأجانب جميعاً(٧٦).

وكانت بنية السلطان قوية، ويصف الكابتن «جويليان» الفرنسي السلطان سعيد بقوله(٧٧): «وقامته المديدة وطلعته المهيبة تضفي عليه وقاراً يفوق ما كان يتحلى به من الصفات. وقد لاحظ الزائرون الأجانب أنه كان من أبهى حكام الشرق طلعة وأوفرهم هيبة. ويكاد وصفهم له يرقى إلى حد الشعر، ومحبة أهل زنجبار له

---

(٧٦) د. حسن إبراهيم حسن: المرجع السابق ص٣٠٦.

(٧٧) د. حسن إبراهيم حسن: نفس المرجع ص٣٠٦.

تبلغ حد العبادة».

ويقول د. صلاح العقاد، بأن المؤلفات عن السلطان سعيد وأعماله كثرت باللغات الأجنبية، خاصة الفرنسية والإنجليزية، وساهم في ذلك الرحالة المعاصرون له وبعض المؤرخين المحدثين، وقد انصب اهتمام هؤلاء على منجزات الحاكم العربي في شرق أفريقيا، لأن الأوربيين استفادوا من تمهيد العرب لتلك المنطقة وفتحها للتجارة العالمية، في حين لم يحظ السلطان سعيد باهتمام كاف من المؤرخين العرب(٧٨).

لقد كان السلطان سعيد يتصف باللين وحب الخير واللباقة، وكان شعبه يعتبره والداً أكثر منه حاكماً، كما تشهد بذلك دائماً زياراته لخدمه وتهنئتهم عندما يتزوجون. وكان يهتم بتطبيق المساواة والعدالة، وكان صديقاً لكل إنسان ويرغب في فعل الخير، وإن النجاح الذي حققه كان في حب سعيد لشعبه وحب الشعب له(٧٩).

---

(٧٨) د. صلاح العقاد: المرجع السابق ص١٠٩.

(٧٩) وندل فليبس: المرجع السابق ص١٤٢.

الدولة العربية - الأفريقية
والعلاقات الدولية

لم يقتصر السلطان سعيد على إقامة العلاقات بين دولته وبريطانيا، وإنما توسع في النشاط الاقتصادي، مما أدى إلى الدخول في علاقات دولية مع كل من الولايات المتحدة وفرنسا وهولنده(٨٠). كما شجع الأجانب على الإقامة في بلاده ومنحهم الكثير من التسهيلات التجارية، وتأسست القنصليات الأجنبية لعدة دول في زنجبار.

ورغم أن شرق أفريقيا أفادت من التدخل الأوروبي الاقتصادي، ولكن نتائجه السياسية كانت وخيمة لأنها مهدت للتدخل السياسي والعسكري الأوروبي. وليس أدل على ذلك من أن الدول الأوربية التي مارست النشاط الاقتصادي في شرق أفريقيا، هي التي مهدت لنفسها السبيل لاستعمار شرق أفريقيا واقتسام ممتلكات السلطنة العربية ـ الأفريقية فيما بينها. ففي حركة تقسيم أفريقيا نجد تلك الدول التي قامت بالنشاط الاقتصادي في شرق أفريقيا، هي نفسها التي اقتسمت مناطق النفوذ فيما بينها(٨١).

وتعتبر معاهدة (١٨٣٣) مع الولايات المتحدة من أهم المعاهدات التي وقعها السلطان سعيد، والتي نصت على إبقاء الصلات الودية بين البلدين والتأكيد على حرية التجارة بالنسبة لرعايا

---

(٨٠) وندل فليبس: المرجع السابق ص١٤٢.

(٨١) د. جمال زكريا قاسم: المرجع السابق ص٢٢٣-٢٣٢.

الطرفين(٨٢). وهذا ما جعل بريطانيا تعيد صلاتها مع السلطان سعيد، خوفاً من انصرافه إلى غيرها من الدول. ولعل ذلك ما دفعها إلى عقد معاهدة عام (١٨٣٩) الشبيهة إلى حد كبير بالمعاهدة الأمريكية.

كما أبرمت معاهدة مع فرنسا عام (١٨٤٤) والتي وصفها أحد الباحثين القانونيين بأنها كانت نصراً كبيراً للسياسة الفرنسية، وكانت تعني عودة ازدهار العلاقات بين فرنسا والسلطنة العربية ـ الأفريقية بعد انكماش تلك العلاقات منذ عام (١٨١٠)(٨٣).

وإن تلك العلاقات الدولية مع شرق أفريقيا لم تقتصر على الشؤون الاقتصادية فقط، وإنما تعدتها إلى مجالات أخرى، منها الحركات الاستكشافية والحركات التبشيرية. وكثير من هؤلاء المكتشفين والمبشرين أشادوا بمساعدة السلطان سعيد لهم، واعتمدوا على نفوذه في التوغل داخل الأقاليم الأفريقية. وقد تحدث المبشر المسيحي «كرامبف» في كتابه عن النشاطات التبشيرية في شرق القارة الأفريقية والتسهيلات الكثيرة التي قدمها السلطان سعيد له لنشر المسيحية، وأنه كان يزوده بحاميات عسكرية للحراسة، وبعث معه رسائل إلى زعماء القبائل والرؤساء التابعين له في داخل أفريقيا. وإن كثيراً من المؤسسات التبشيرية

---

(٨٢) ثيرمان إيلتس: عمان والولايات المتحدة الأمريكية ص١٤.

(٨٣) د. جمال زكريا قاسم: المرجع السابق ص٢٣٣.

والإنجليزية والفرنسية قد اضطلعت بالشؤون التبشيرية في شرق أفريقيا، وتأسست الكثير من المدارس والمراكز التبشيرية في الساحل والداخل(٨٤).

وقد كانت «جمعية التبشير الكنسية» قد بعثت «بالدكتور كوامبف» في عام (١٨٤٤) إلى زنجبار عن طريق القنصل البريطاني الذي قدمه للسلطان سعيد، وشرح المبشر «كرامبف» للسلطان أنه يرغب في الاستيطان في ممباسة من أجل تحويل السكان إلى المسيحية، فسمح له السلطان سعيد بالقيام بذلك، وسلمه توصية للحاكم العربي للساحل، ومن ممباسة بدأ عمله في التبشير بين قبائل «نييكا»(٨٥) بعدما كان قد فشل ولم ينجح في المناطق الشرقية من الحبشة، علماً بأن هذه الجمعية من أقدم الجمعيات التبشيرية التي وفدت إلى شرق أفريقيا.

إضافة إلى المبشرين المسيحين فإن المستكشفين الأوربيين أيضاً وجدوا كل عون ومساعدة من السلطان سعيد، والذين قاموا بكشوفهم الجغرافية، مسترشدين بما أوجده التجار العرب، مما يؤكد أهمية هذه المراكز الحضارية ودور السلطنة العربية - الأفريقية في تقدم حركة الكشوف الجغرافية في شرق أفريقيا(٨٦).

---

(٨٤) د. جمال زكريا قاسم: نفس المرجع ص٢٣٤.

(٨٥) أحمد حمود المعمري: عمان وشرق أفريقيا ص٩٦.

(٨٦) د. جمال زكريا قاسم المرجع السابق ص٢٣٤.

وبعد دراستنا لنشاطات القوى الأوربية من اقتصادية واستكشافية وتبشيرية، وما قدمه السلطان سعيد لتلك الحركات والجمعيات التبشيرية وسهل عملها في تنصير الأفارقة، وعرض كافة المساعدات والتسهيلات للبعثات المسيحية؛ فإنه يتبين لنا مقدار الخطر الكبير الذي كان يتربص ليس فقط بممتلكات السلطنة العربية ـ الأفريقية، وإنما بالعلاقات العربية ـ الأفريقية التي تأثرت إلى درجة كبيرة بعد مجيء الاستعمار الأوروبي إلى شرق أفريقيا، والذي قام بجهود كبيرة لقطع هذه العلاقات وربط شرق أفريقيا اقتصادياً وثقافياً بالدول الاستعمارية الأوربية.

نهاية الدولة العربية ـ الأفريقية

كان السلطان سعيد أول من فكر في إقامة الدولة العربية ـ الأفريقية، لكن آماله وأحلامه لم تقابل بالنجاح الذي كان يتوقعه، بل إن آماله في تأسيس تلك الدولة كانت مسؤولة إلى حد كبير عن إهماله لممتلكاته في الخليج والجزيرة العربية، وكانت المحصلة النهائية تفكك ممتلكاته في عمان وشرق أفريقيا بعد وفاته عام (١٨٥٦)، كما كثرت الثورات الإباضية في عمان وزادت الغزوات الوهابية.

وقد كان من الصعب على السلطان سعيد الاحتفاظ بالدولة العربية ـ الأفريقية بشقيها الأفريقي والآسيوي في غمار القرن التاسع عشر، الذي شهد تفوق القوة الأوربية العسكرية والصناعية، وشهد الرتل الطويل من المستكشفين والرواد المبشرين والتجار الأوربيين الذين توصلوا إلى تلك الحقيقة، وهي أن شرق أفريقيا صالحة للاستغلال وأنها قارة جديرة بالامتلاك والسيطرة. وبذلك شاءت الظروف أن تصطدم برغبة السلطان في تأسيس الدولة العربية ـ الأفريقية مع رغبة الدول الاستعمارية الأوربية في السيطرة على تلك القارة واستعمارها واقتسامها فيما بينها(٨٧).

وقد يكون السلطان سعيد ارتكب خطأ عندما ربط مصيره

---

(٨٧) د. جمال زكريا قاسم: المرجع السابق ص٢٣٥.

بمصير الوجود البريطاني منذ العقد الأول من القرن التاسع عشر، وراح يستجيب لمطالب بريطانيا وأبرم معها ومع غيرها من الدول الأوربية الاتفاقيات الاقتصادية التي فتحب أبواب أفريقية الشرقية على مصراعها للأوربيين، مما أدى في النهاية إلى الاحتلال الأوروبي.

وكان البريطانيون وغيرهم من الأوروبيين قد استغلوا هذه الفرصة، فأخذوا يتسللون إلى داخل القارة تحت ستار التجارة وحركات الكشوف الجغرافية والحركات التبشيرية. كما عملوا بعد وفاة السلطان سعيد على تفكيك أوصال الدولة العربية ـ الأفريقية بفصل شرق أفريقيا عن سلطنة عمان العربية حتى يسهل عليهم التدخل في شؤون كل منهما والاستحواذ عليهما(٨٨).

يقول «بيرس» في تعليقه على آمال السلطان سعيد بالدولة العربية ـ الأفريقية: إنه ولد متأخراً خمسمائة عام! وفي وقت غير ملائم لتحقيق تلك الرغبات والآمال التي كان يحرص عليها السلطان سعيد، ومهما يقل عن فشل السلطان سعيد في المحافظة على ممتلكاته في عمان أو فشله في الإبقاء على دولته في شرق أفريقيا، إلا أن الأمر الذي لا شك فيه أن وجوده واهتمامه بشرق أفريقيا أثر على تلك المنطقة حتى تطورت وازدهرت، وأصبحت

---

(٨٨) د. محمد عبد الله النقيرة: إنتشار الإسلام في شرقي أفريقية ومناهضة الغرب له ص٣١٨.

شهرة السلطان سعيد في العالم الخارجي متعلقة بحكمه لشرق أفريقيا أكثر مما ترجع إلى حكمه لعمان العربية(٨٩). وهذا دليل واضح على الدور الذي لعبه السلطان سعيد في تطوير العلاقات العربية ـ الأفريقية إلى درجة جعلت أقاليمه العربية تتأثر على حساب الأقاليم الأفريقية التي ازدهرت، ولكنها في النهاية قدمت الكثير وساهمت في تقوية العلاقات العربية ـ الأفريقية.

---

(٨٩) د. جمال زكريا قاسم: المرجع السابق ص٢٣٥.

المراجع

١) أحمد إبراهيم دياب (دكتور): لمحات من التاريخ الأفريقي الحديث. دار المريخ. الرياض ١٩٨١.

٢) أحمد حمود المعمري: عمان وشرق أفريقيا. وزارة التراث القومي والثقافة. مسقط ١٩٧٩.

٣) جون.ب.كيلي: بريطانيا والخليج ج١.ترجمة محمد أمين عبد الله. وزارة التراث القومي والثقافة. مسقط ١٩٧٩.

٤) جمال زكريا قاسم (دكتور): الخليج العربي ١٥٠٧ـ١٨٤٠.دار الفكر العربي. القاهرة ١٩٨٥.

٥) ج.ج.لوريمر: دليل الخليج. القسم التاريخي.ج٢. مكتب أمير قطر. الدوحة. السنة غير مكتوبة.

٦) جلال يحيى (دكتور): تاريخ أفريقية الحديث والمعاصر. المكتب الجامعي الحديث. الإسكندرية ١٩٨٤.

٧) حسن أحمد محمود (دكتور): الإسلام والثقافة العربية في أفريقيا. دار الفكر العربي. القاهرة ١٩٨٦.

٨) حسن إبراهيم حسن (دكتور): انتشار الإسلام في القارة الأفريقية. مكتبة النهضة المصرية. القاهرة ١٩٨٤.

٩) حلمي شعراوي: العرب والأفريقيون وجهاً لوجه. دار الثقافة الجديد. القاهرة ١٩٨٤.

١٠) رودولف سعيد ـ روث: سلطنة عمان خلال حكم السيد سعيد بن سلطان. جامعة البصرة ١٩٨٣.

(١١) رأفت غنيمي الشيخ (دكتور): أفريقيا في التاريخ المعاصر. دار الثقافة للطباعة والنشر. القاهرة ١٩٨٢.

(١٢) سالمة بنت سعيد بن سلطان: مذكرات أميرة عربية. ترجمة عبد المجيد القيس. أبوظبي ١٩٧٤.

١٣) صلاح العقاد (دكتور): التيارات السياسية في الخليج العربي. مكتبة الأنجلو المصرية. القاهرة ١٩٧٤.

١٤) عصام محسن الجبوري: العلاقات العربية الأفريقية. وزارة الثقافة والإعلام. بغداد ١٩٨١.

١٥) عائشة السيار: دولة اليعاربة عمان وشرق أفريقيا. دار القدس. بيروت ١٩٧٥.

١٦) فالح حنظل: المفصل في تاريخ الإمارات العربية المتحدة ج٢. لجنة التراث والتاريخ أبوظبي ١٩٨٣.

١٧) لجنة تدوين تاريخ قطر: البحوث المقدمة إلى مؤتمر دراسات تاريخ شرق الجزيرة العربية. الدوحة ١٩٧٦.

١٨) محمد محمود الصواف: أفريقيا المسلمة. الدار السعودية للنشر. جدة ١٩٧٤.

١٩) محمد فايق: عبد الناصر والثورة الأفريقية. دار الوحدة للطباعة والنشر. جدة ١٩٧٤.

٢٠) محمد عبد الله النقير (دكتور): انتشار الإسلام في شرقي أفريقية ومناهضة الغرب له. دار المريخ. الرياض ١٩٨٢.

٢١) هدى سليم عبد الباقي: الروابط بين العرب والأفارقة السود والأمريكيين

السود. دار المروج. بيروت ١٩٨٦.

٢٢) هيرمان أيلتس: عمان والولايات المتحدة الأمريكية. وزارة التراث القومي والثقافة. مسقط ١٩٨٥.

٢٣) وندل فليبس: تاريخ عمان. ترجمة محمد أمين عبد الله. وزارة التراث القومي والثقافة. مسقط ١٩٨١.

الفهرس

صدر في هذه السلسلة

ابن ماجد الملاح الفلكي
الأفلاج في مدينة العين
إمارة أبوظبي في عهد زايد بن خليفة
الأمن السياسي لدول مجلس التعاون
التدخل الفارسي في الشؤون العمانية
تطور السياسة الإيرانية تجاه البحرين
الحياة الإدارية في سنجق الإحساء العثماني
الحياة الفكرية في شرق الجزيرة العربية في العهد العثماني
سقوط الحكم البرتغالي في الخليج العربي
السلطان سعيد والعلاقات العربية ـ الأفريقية
السياسة العثمانية تجاه الخليج العربي
الصراع العثماني ـ البرتغالي في الخليج العربي
العلاقات العربية ـ الاسبانية
مشكلة الرعايا البريطانيين من التجار الهنود في قطر
الموقف البريطاني من الوجود العثماني في الإحساء وقطر

صدر للمؤلف

ابن ماجد الملاح الفلكي
أشراف حضرموت ودورهم في نشر الإسلام بجنوب شرق آسيا
الأفلاج في مدينة العين
الأقلية الإسلامية في بلغاريا
إمارة أبوظبي في عهد زايد بن خليفة
الأمن السياسي لدول مجلس التعاون
التاريخ المعاصر لدولة الإمارات العربية المتحدة
التدخل الفارسي في الشؤون العمانية
تطور السياسة الإيرانية تجاه البحرين
التطورات السياسية في دولة الإمارات العربية المتحدة
الحياة الإدارية في سنجق الإحساء العثماني
الحياة الفكرية في شرق الجزيرة العربية في العهد العثماني
سقوط الحكم البرتغالي في الخليج العربي
السلطان سعيد والعلاقات العربية ـ الأفريقية
السياسة العثمانية تجاه الخليج العربي
الصراع العثماني ـ البرتغالي في الخليج العربي
العلاقات العربية ـ الاسبانية
العلاقات العربية ـ الإيرانية
مشكلة الرعايا البريطانيين من التجار الهنود في قطر
الموجز في تاريخ الإمارات
الموقف البريطاني من الوجود العثماني في الإحساء وقطر